سورة الرعد

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓرٰ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤ ۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥

سورة الرّعد مكيّة وآياتها ثلاث وأربعون آية، واسمها مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[الرعد:١٣].

[١] سبق الكلام علىٰ الأحرف المقطعة في أول سورة البقرة. ثم بدأت السورة بالثناء علىٰ القرآن الكريم والتذكير بأن هذا القرآن وآياته التي أنزلت علىٰ محمد ﷺ من عند الله هي الحق الخالص، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون به، وينكرون أنه من عند الله مكابرة وحفاظًا علىٰ ما كان عليه آباؤهم وعلىٰ سيادتهم. وهذه الآية تذكير بالآية التي قبلها في ختام سورة يوسف: ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ [يوسف:١١١]؛ لأن كفار قريش يقولون: إنك يا محمد تأتي بهذا القرآن من نفسك، كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[الأعراف:٢٠٣]، وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾[يونس:١٥].

[٢] ثم بين سبحانه وتعالىٰ بعض الأدلة التي تدل علىٰ كمال قدرته، ومن ذلك: أنه خلق السماوات السبع وجعلها مرتفعة علىٰ أعمدة كأعمدة سقف البيت ولكنها لا تُرىٰ، ومما يدل علىٰ أن لها أعمدة هو الجاذبية؛ فسبحان الخالق المبدع، ثم أخبر سبحانه أنه استوىٰ علىٰ العرش استواء يليق بجلاله، وقد سبق التعليق علىٰ مسألة الاستواء في الآية (٥٤) من سورة آل عمران، والآية (٥) من سورة طه، وأخبر أنه أوجد الشمس والقمر كلًا يؤدي خدمة لمصلحة العباد مرسومة له لوقت محدد وهو فناء الدنيا، ثم بين سبحانه أنه يُصَرِّفُ أمور الدنيا والآخرة علىٰ أحسن الوجوه وأكملها، ويوضح لكم الآيات الدالة علىٰ وحدانيته وقدرته لعلكم توقنوا بلقاء الله ولا تشكُّوا به أبدًا، فيحملكم ذلك علىٰ أن تصدقوا بوعده ووعيده وأن تُخْلصوا العبادة له وحده.

[٣] ومما يدل علىٰ كمال قدرته سبحانه وتعالىٰ أيضًا: أنه هو الذي خلق الأرض ومهدها لعباده وبسطها ووسعها ومدَّدها وجعل فيها ما يصلح حالهم وشأنهم، وجعل فيه: جبالًا عظيمةً كبيرةً تثبّتها، لئلا تميد الأرض وتتحرك وتضطرب بما عليها، وجعل فيها: أنهارًا تجري فيشرب منها البشر والدواب، ويُنتفع بها، وتنمو بها الأشجار، وتخرج بها الزروع والثمار، وجعل فيها من كل الثمرات صنفين اثنين، ذكرًا وأنثىٰ حلوًا وحامضًا، وهو سبحانه الذي جعل الليل يُغطي النهار ويشمله بظلمته فتسكن الحركة وتخلد المخلوقات للراحة والسكون، وفي كل ما مضىٰ آيات بينات وعلامات واضحات تدلُّ علىٰ وحدانية الله جل وعلا واستحقاقه العبادة دون ما سواه، وإنما ينتفع بهذه الآيات الذين يتفكرون فيها، ويُعْملون عقولهم ويتدبرون.

[٤] ومن مظاهر وكمال قدرته جل وعلا أنه جعل الأرض كتلة واحدة متماسكة؛ وأنها تحتوي علىٰ بقاع متجاورة كثيرة؛ لكن هذه البقاع تختلف كل واحدة عن الأخرىٰ في أوصافها وطبيعتها؛ فمنها سبخ لا يُنتج نباتًا ولا ينفع ماؤه، وبعضها صخور وجبال، وبعضها رياض تُنبت كل أنواع الثمار والزروع بإذن ربها، وتجدها في روضة واحدة، وتُسقىٰ بماء واحد، ولكن تجد الثمار متنوعة منها الأصفر والأحمر والأبيض والكبير والصغير؛ وهذا حلو وهذا حامض، وبعضها أفضل من بعض في المذاق والأكل، فتبارك الله أحسن الخالقين، واعلموا أن في ذلك كله لأدلة وبراهين لقوم يتفكرون ويتأملون في عظيم قدرته سبحانه.

[٥] ثم قال سبحانه علىٰ سبيل التعجب: وإن تعجب أيها السامع من تكذيب الكفار لمحمد ﷺ فاعلم أن الذي يستحق العجب هو قولهم: أإذا متنا وكنا ترابا فهل نُبعث من جديد؟، فيا سبحان الله يتعجبون من الإحياء بعد الموت، ولا يتعجبون من بداية خلق الإنسان، فهذا أبي بن خلف يأخذ عظمًا باليًا ويفركه وينفخه ثم يقول: أيُحيي الله مثل هذا يا محمد؟! فقال ﷺ: «**نعم يُحيي الله هذا، ويميتُك، ويُدخلك النار**»(١)، وفعلاً قُتل أبي بن خلف في أحدٍ، قتله رسول الله ﷺ، ومات كافرًا محاربًا لله ولرسوله ﷺ، ولا يُعلم أن رسول الله ﷺ قتل أحدًا من المشركين بيده إلا أبي بن خلف لعنه الله، واعلم يانبي الله أن جزاء الكفار الذين كفروا بالله وأنكروا البعث؛ أن توضع في أعناقهم يوم القيامة سلاسل من نار، وأنهم أصحاب النار يدخلونها ولا يخرجون منها أبدًا، نسأل الله تعالىٰ العفو والعافية.

(١) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٢٤٩٨).

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن
قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا
أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ
هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ
وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ
أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ
بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ
يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا
مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا
لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا
وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ
وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

[٦] ويستعجلك يانبي الله المكذبون بطلب السيئة وهي العقوبة والعذاب قبل الحسنة وهي العافية والإيمان بالرسالة، وهذه السيئة التي استعجلوها هي المذكورة في قوله: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[العنكبوت:٢٩]، ولم يعتبروا بما حصل للأمم السابقة من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم. واعلم يانبي الله أن الله كثير المغفرة لمن تاب وأناب من الناس الذين ظلموا أنفسهم بالذنوب والمعاصي، ثم اعلم بأن الله شديد العقاب لمن أصرَّ على ذنبه، واستكبر وعاند واستمر في ظلمه وكفره بالله.

[٧] ويقول كفار مكة للنبي ﷺ: هلا أُنزلت عليك معجزة خارقة غير هذا القرآن تدل على صدقك، يبغون بذلك العناد والمماطلة، والحال يامحمد أنك ليس لك من الأمر شيء، وأنك منذرٌ ومبيِّن لهم، وإنزال الآيات إنما يكون بأمر الله، ولكل قوم داعٍ يدعوهم إلى الحق والتوحيد، والبعد عن الشرك والضلال، والمقصود بالهداية هنا: هداية الدلالة والإرشاد.

[٨] يخبر جلا وعلا أنه يعلم ما تحمل كل أنثى في بطنها، وقوله: ﴿كُلُّ﴾ هنا تعني: عموم الإناث من الناس والحيوان وغيرهما؛ ويعلم أذكر هو أم أنثى؟ وشقي أم سعيد؟ ويعلم ما تغيض الأرحام، أي: يعلم ما يسقط قبل إتمام الحمل، وقال الحسن: الذي يولد في الثامن، وقال جمهور المفسرين: الذي ينزل من الرحم سقطًا؛ سواء كان مضغة أو نفخ فيه الروح ولم يكتمل نموه، ويعلم الذي تمّ واكتمل نموه ثم وُلد؛ سواء مات بعد ولادته أو عاش حينًا من الدهر.

قال عالم الإعجاز الشيخ عبدالمجيد الزنداني: الغيض يكون خلال عشرة أيام من الجماع، أما بعدها فيعلمه الملك والبشر بوسائلهم، واعلموا أن كل شيء عند الله مقدر: حياته وموته وكماله ونقصه وحجمه لا ينقص ولا يزيد.

[٩] ثم بين سبحانه أنه عالم بكل شيء، فهو العالم بما غاب عن الناس، والعالم بما يشاهدونه، وهو سبحانه الكبير في ذاته وأسمائه وصفاته، لا أحد أكبر منه ولا أعظم، وهو سبحانه المتعالي على جميع مخلوقاته ذاتًا وقدرةً وقهرًا لا إله غيره ولا ربَّ سواه.

[١٠] يخبر جل وعلا أنه يستوي عنده علم السر والعلانية، لا تخفى عليه خافية، فيستوي من أسرَّ وأخفى قوله بمن تكلَّم به علانية، كما يستوي عنده عمل من يستخفي ويستتر بظلمة الليل؛ أو يستتر في سرب أو مغارة أو نحو ذلك، بعمل مَن يجهر به وفي وضح النهار، فهو سبحانه يعلم السرَّ وأخفى.

[١١] يخبر جل وعلا أن له ملائكة يتناوبون بعضهم يخلف بعضًا يحفظون الإنسان من كل جوانبه بأمر الله لهم، وأخبر أنه لا يمكن أن يسلب من قوم نعمة أنعمها عليهم إلا إذا غيَّروا سلوكهم الحسن إلى سيءٍ، فأسرفوا وبطروا، وصرفوا نعم الله في الحرام؛ فحينئذ تحل بهم النقم والكوارث، ثم أخبر بأنه إذا أراد بقوم بلاءً أعمى بصائرهم وحلّت بهم النقم ولا راد لقضائه، وليس لهم عند ذلك والٍ يتولى أمرهم ويدفع عنهم ما يحل بهم من عذاب الله؛ فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه. والحاصل: أن نعم الله على عباده كثيرة لا تحصى، ولطفه ورحمته بهم متتابعة في حياتهم كلها؛ فيغمرهم بفضله، ويتابع نعمه عليهم طول الزمن الذي يعترفون فيه لله بالفضل والشكر، فإذا كفروا بنعمه وجحدوها ولم يشكروها أتاهم أمر الله من العقوبات التي تحل بهم في الدنيا والآخرة.

[١٢] ثم يخبر سبحانه وتعالى أن مظاهر قدرته أنه يريكم البرق -وهو النور اللامع- بحسب احتكاك السحب ببعضها؛ فبعضكم يخاف أن تنزل منه الصواعق المحرقة، والسيول المدمرة، وبعضكم يطمع في أن ينزل معه المطر النافع الذي يعم الناس بالخير والرحمة والرزق، ويخبر أيضًا أن من مظاهر قدرته أنه يوجِدُ السحابَ المحمَّل بالماء الكثير ثم يرسله من مكان إلى مكان بحسب ما تقتضيه الحكمة والمشيئة الإلهية.

[١٣] ثم يخبر جل شأنه أن من مظاهر قدرته: أن الرعد وهو صوت احتكاك السحب أو ارتطام بعضها ببعض، يسبح بحمده نطقًا؛ خوفًا من الله وإجلالًا لمقامه وذاته، وقيل: أصواته وتنقله تسبيح وشهادة بعظمة الله وحمدٌ له، وتسبيح الرعد بحمد الله من الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها ونفوض كيفيتها إلى الله تعالى، ويخبر سبحانه أن من مظاهر قدرته أيضًا أن الملائكة تسبح تعظيمًا لله وخوفًا منه، ويخبر جل وعلا أن من مظاهر قدرته أيضًا أنه يرسل الصواعق وهي كتل نارية محرقة فيهلك بها من يشاء من خلقه، وثم أخبر جل وعلا أن الكفار يخاصمون الرسول ﷺ ويكذبونه في قدرة الله، وهو جل وعلا شديد العقوبة لمستحقها من خلقه.

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا
كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ
إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ
لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ
تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ
ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ
كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ
وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ
ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟
لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

[١٤] بعد أن بين جل وعلا أن الكفار يُكذِّبون الرسل في قدرة الله وعظمته، ويكذبونهم في أنه قادر على الانتقام وإحياء الموتى، بين سبحانه أن دعوته هي الدعوة الحقَّ، وأن له وحده دعوة التوحيد، وأنه هو الذي يجيب الدعاء بحق، وأن آلهة الكفار التي يدعونها من دون الله ليس لها من الأمر شيء، وأنها لا تستجيب لدعاء من دعاها، وأن الذي يدعو إلهًا من دون الله كالعطشان الذي يشير بكفيه إلى ماء بعيد يريد أن يصل إلى فمه لكن الماء لا يأتيه لأنه لا يستجيب إلا لمن سعى إليه، ثم بين سبحانه أن دعاء الكافرين وعباداتهم في ضلالٍ وضياعٍ وخسرانٍ لأنه لا إجابة له لإشراكهم بالله غيره.

[١٥] ذكر جل وعلا أن المخلوقات العلوية والسفلية كلها تسجد لله خاضعة منقادة لعظمته؛ فيسجد ويخضع له المؤمنون طوعًا، ويخضع له الكافرون والشياطين ونحوهم رغمًا عنهم كرهًا، وكذلك تخضع لعظمته ظلال كل الكائنات في أول النهار وآخره.

[١٦] وقل يا نبي الله لهؤلاء المشركين: مَنْ خالق السماوات والأرض ومدبرهما؟! فأجبهم مباشرة بما يعتقدونه وهو أنه: (الله) الخالق الرازق المدبر المحيي المميت، ثم قلْ لهم: إذا كنتم تقرّون بذلك فَلِمَ اتخذتم من دونه آلهة تعبدونها وتتقربون إليها، وتطلبون منها وتسألونها، وهذه الآلهة لا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعًا فضلًا عن أن تملك ذلك لغيرها؟!، فأين ذهبت عقولكم؟!، ثم قل لهم: هل تساوون بين الأعمى والبصير؟! وبين الظلمات والنور؟! فكذلك لا يسوَّى الكفر بالإيمان، ولا الشرك بالتوحيد، ولا الضلال بالهدى، ثم قل لهم على سبيل الإنكار والتعجب: أم أن هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله استطاعوا أن يخلقوا بعض المخلوقات فاشتبهت عليكم، ولم تستطيعوا أن تميزوا بينها وبين خلق الله فاعتقدتم استحقاقهم للعبادة مع الله؟! وهم يعلمون أن معبوداتهم لا تستطيع ذلك، ثم قل لهم: الله تعالى وحده خالق كلِّ شيء، وعليه فهو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه، وهو الواحد المتفرد بالخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة، وهو الواحد أيضًا في ألوهيته، وهو القهّار الذي قهر الجميع، وذلَّ له كل شيء سبحانه وتعالى.

[١٧] يخبر جل وعلا أنه أنزل من السماء ماءً كثيرًا متدفقًا فسالت على إثره الأودية بحسب صغرها وكبرها كل بما يملأه، وهذا السيل مع شدة جريانه يحمل فوقه غثاء طافيًا لا نفع فيه، وهذا مثلٌ ضربه الله للحق والباطل، وضرب سبحانه مثلًا آخر في المعادن التي توقد عليها النار لصهرها طلبًا للزينة أو الانتفاع بها، فيخرج منها خبثها مما لا فائدة فيه كالذي يطفو على الماء، وبمثل هذا يضرب الله الأمثال للحق والباطل؛ فالباطل لا خير فيه، فهو كالغثاء الذي يطفو على وجه الماء فيرمي به السيل على جانبَي الوادي فتذروه الرياح ثم يضمحل ويزهق ويذهب جفاء فلا بقاء له ولا فائدة منه، وأمّا الحق فإنه ظاهر ونافع؛ كالماء الصافي الذي يثبت في الأرض وكالمعادن النقية التي ينتفع بها الناس، وسوف يظهر ويعلو مهما كاد له الأعداء، وبمثل هذا البيان البديع يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون فيؤمنون بالله الإيمان الحق، ويميزون بين الخير والشر، والمعروف والمنكر.

[١٨] بين جل وعلا مآل من آمن به وأطاعه واتّقاه، ومآل من كفر به وعصاه؛ فالذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله ﷺ، واستجابوا طائعين، لهم الحالة الحسنة في الدنيا، والثواب الحسن في الآخرة، في جنات النعيم، لهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأما الذين لم يستجيبوا لله ورسوله ﷺ، ولم يلبوا داعي الإيمان حين أتاهم؛ فأولئك لهم الخزي والخسار، والعذاب الشديد في النار، وهؤلاء لو أنهم يمتلكون ضعف ما على الأرض من أصناف الأموال، وقدموها فديةً لأنفسهم لينجو من عذاب يوم القيامة؛ ما نفعهم ذلك، ولا أغنى عنهم شيئًا، وأولئك سيجدون جميع ما قدموا من الأعمال ينتظرهم هناك، في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فيحاسبون على ذلك أشدَّ الحساب وأقساه، ثم يكون مكانهم ومستقرهم ومسكنهم: نار جهنم، فبئس المكان والمقرّ، وبئس الفراش والمستقرّ.

* أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ
أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ
﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ
بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾
وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ
مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ
ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا
مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ
إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

[١٩] يقول جل وعلا على وجه الإنكار والاستبعاد: وهل الذي يعلم يانبي الله أن ما أُنزل إليك من ربك هو التوحيد، فيؤمن به، ويعمل بمقتضاه؛ يستوي مع أعمى القلب الذي لا يعلم ذلك؟! والجواب: قطعًا سيكون: لا يستويان، ثم مدح سبحانه أصحاب العقول الراجحة والعقول النيرة الذين يتعظون بذلك ويدركون الفرق بينهما فيتبعون سبيل أهل الإيمان.

[٢٠] يخبر جل وعلا أن من صفات أولي الألباب: أنهم يوفون ويتمّون جميع ما عاهدوا الله عليه، ومن تمام وفائهم بذلك أنهم لا ينقضون جميع العهود والمواثيق التي أخذوها على أنفسهم، وتعهدوا بوفائها، كالأيمان والنذور وغيرها فيؤدونها كاملة.

[٢١] ومن صفاتهم أنهم: يصلون جميع من أمر الله بوصله، فيصلون الله ورسوله بالطاعة بأداء الواجبات والمستحبات، ويصلون الوالدين ببرِّهما، ويصلون الأقارب والأرحام بما لهم من صلة الرحم، ويصلون أزواجهم بالعشرة بالمعروف، ويصلون ما تحت أيديهم وما ولُّوا بحسن الرعاية، ومع ذلك: يخافون الله ويخافون عذابه وعقابه، فيعبدونه مستقيمين على طاعته، ويخافون من الحساب وشدته يوم القيامة.

[٢٢] ومن صفاتهم أنهم: يصبرون على الطاعات، وعن المعاصي، وعلى أقدار الله المؤلمة؛ فلا يتجزعون ولا يتسخطون، وهم في ذلك مخلصون لوجه الله سبحانه وتعالى، فلا مقصد لهم، ولا غرض إلا رضا المولى سبحانه، ويقيمون الصلاة على أحسن وجه وأكمل صفة، ويخرجون أموالهم لله طيبة بها نفوسهم، زكاة وصدقة، ويجعلون إنفاقهم في السر -وهو أدعى للإخلاص-، وفي العلن -لِمَا فيه مصلحة تشجيع غيرهم-، وأيضًا يقابلون السيئة بالحسنة؛ فيعفون عمن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، وهؤلاء المتصفون بهذه الصفات لهم العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة.

[٢٣] ثم بين جل وعلا هذه العاقبة الحميدة، فأخبر أنها: جنات عدن، أي: إقامة دائمة لا انقطاع لها ولا زوال، يدخلونها وبصحبتهم من آمن وصلح لدخولها من الآباء والأمهات والأزواج والذريَّات، ليحصل لهم تمام الأنس، وكمال الفرح والسعادة بالاجتماع في دار الكرامة، ثم هم مع ذلك النعيم، تدخل عليهم الملائكة من كل باب يهنؤونهم بفوزهم، وبرضوان الله عليهم.

[٢٤] وبين سبحانه أن الملائكة تسلم على أهل الجنة سلامًا خاصًا؛ وتخبرهم أنهم حصلوا على ذلك النعيم برحمة الله لهم، ثم بإيمانهم وصبرهم ومصابرتهم، فنعمت هذه العاقبة، وهذا المآل.

[٢٥] ثم ذكر جل وعلا حال أهل النار، الذين لم يستجيبوا لله ورسوله ﷺ، وذكر الله شيئًا من صفاتهم؛ فمن ذلك: أنهم ينقضون العهد الذي أخذه الله عليهم وأكّده بالمواثيق الغليظة بأن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا، وأنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل من طاعتهم لله وبرِّهم بآبائهم وصلتهم بأرحامهم، وأنهم يسعون في إفساد الأرض بالشرك، وارتكابهم المعاصي، والصدِّ عن سبيل الله، وإفساد البلاد والعباد، وهؤلاء المتصفون بهذه الصفات جزاؤهم اللعنة والطرد والإبعاد من رحمة الله، ثم لهم نار جهنم دارًا لهم، فبئس ما صنعوا، وبئس ما إليه آلوا.

[٢٦] يخبر جل وعلا أنه هو الرزّاق، وأن مقادير الأرزاق بيده وحده سبحانه، فهو يوسع على من يشاء اختبارًا وابتلاءً، ويضيق على من يشاء امتحانًا، ثم أخبر أن الكفار لجهلهم وقلة إدراكهم فرِحوا بالحياة الدنيا، ورضوا بها، واطمأنوا إليها، وغفلوا عن الآخرة، وما حقيقة هذه الحياة الدنيا - بكل ما فيها - إلا متاع قليل زائل.

[٢٧] أخبر جل وعلا أن الذين كفروا يقولون: هلا أنزل الله علينا معجزة كونية تدل على صدق محمد كالمعجزات الحسِّية التي أنزلت على الأنبياء من قبله، وهذا يعني أنهم يرون أن المعجزة التي أنزلت على محمد وهي القرآن الكريم لا تكفي أو لا تصلح أن تكون معجزة تدل على صدقه ﷺ، فقل لهم: إن الله يضل من يرغب الضلال، ويهدي من يرغب الهداية؛ يعني: أن الله جعلهم مختارين؛ فالذين اختار الضلال وأصروا على الكفر ثبتهم الله عليه، كما أن الذين آمنوا وتابوا هداهم الله، وكلا الأمرين بعلم الله وإرادته الكونية.

[٢٨] ثم بين سبحانه أن الذين آمنوا بالله وصدَّقوا رسوله ﷺ لهم علامة تدلّ عليهم، وهي اطمئنان قلوبهم وسكونها واستئناسها وفرحها، وزوال الاضطراب عنها عند ذكر الله جل وعلا، ألا بذكر الله وأسمائه وصفاته تطمئن القلوب، وتهدأ النفوس، وتسكن الجوارح.

الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾
كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟
عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا
سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ
بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ
ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم
بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ
ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن
قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ
عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌۢ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟
لِلَّهِ شُرَكَآءَ ۚ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم
بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۚ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

[٢٩] ثم أخبر جل في علاه أن الذين آمنوا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدقوا رسوله ﷺ، وقاموا بمقتضىٰ ذلك من الأعمال الصالحة؛ أولئك لهم حياة طيبة، وقرة عيْن، وحسن منقلب، ومن ذلك شجرة طوبىٰ في الجنة، وهي شجرة عظيمة يسير الراكب في ظلها مائة عام، ورضوان من الله أكبر.

[٣٠] وكذلك أرسلناك يانبي الله في أمتك ولست أوَّلَ رسول أرسله الله إلىٰ قومه؛ بل أرسلنا قبلك رسلًا إلىٰ قومهم، فلسْت بدعًا من الرسل ليكذّبوك، وقد أرسلناك إليهم لتقرأ عليهم هذا القرآن الذي أوحيناه إليك، لتأمرهم بالتوحيد وتنهاهم عن الشرك، ولتزكو نفوسهم وتتطهر قلوبهم، والحال يامحمد أن قومك جاحدون بتوحيد الرحمن، ومقيمون علىٰ الشرك والكفران، فقل لهم: إن ربي هو الله الذي لا رب سواه، ولا معبود بحق إلّا هو، عليه توكلت واعتمدت ووثقت في جميع أموري، وإليه مرجعي وتوبتي.

[٣١] ثم بين سبحانه أنه لو كان هناك كتاب من الكتب الإلهية تتأثر به الجبال فتنتقل عن أماكنها، أو تقطَّع به الأرض جنات وأنهارًا، أو تُكلَّم به الموتىٰ لكان هو هذا القران؛ لأنه هو الغاية القصوىٰ والحق المطلق في الهداية والتذكير، أفلا يعلم هؤلاء المكذبون أن الله لا يعجزه أن يأتي بما طلبوا من المعجزات، ولكن ليعلم هؤلاء أن الأمر له وحده في كل شيء، أفلم يعلم المؤمنون أن الله قادر علىٰ أن يجعل الجميع يؤمنون؟، ولكن حكمته أنه جعلهم مختارين؛ فمن اختار الضلال فمهما رأىٰ من المصائب سواء حلّت به أو بجيرانه فإنه لن يؤمن حتىٰ يرىٰ الموت أو القيامة إلّا من شاء الله سلامته، ولا يزال الكفار تنزل بهم المصائب من القتل والأسر في الحروب والغزوات، أو تنزل قريبًا من دارهم؛ حتىٰ يتم وعد الله لنبيه وأتباعه بالنصر عليهم؛ إن الله لا يخلف الميعاد.

[٣٢] يخاطب جل وعلا رسوله ﷺ، ويسلّيه حين كذّبه قومه، فقال له: يانبي الله لقد أرسلنا رسلًا من قبلك إلىٰ قومهم، فلم يؤمنوا بهم؛ بل قابلوهم بالاستهزاء والسخرية، فأمهلت وأنظرت هؤلاء المكذِّبين المستهزئين مدّة، ثم أخذتهم وأهلكتهم بأشد وأقسىٰ أنواع العقوبات، فكيف كان إهلاكي إياهم، وهذه نهاية ومصير كل من يستهزئ بالرسل، ويسخر منهم.

[٣٣] ثم أخبر سبحانه بقوله: أفمن هو قائم علىٰ كل نفس بما كسبت من خير أو شرّ، يحصي لها ذلك، ثم يجازيها عليه بالعدل والقسط، وهو الله جل وعلا، كمن ليس كذلك من الآلهة المزعومة؟!!، وقد اتخذ هؤلاء المشركون مع الله آلهة أخرىٰ، وجعلوها شركاء لله، فقل لهم يانبي الله: اذكروا أسماء هذه الآلهة وحقيقتها، وما تملك من النفع والضر، أم تخبرون الله وتُعْلِمونه أيها المشركون بشيء لا يعلمه في الأرض، وهذا من أبطل الباطل، فإن الله عالم الغيب والشهادة، أم غاية أمركم أنكم تذكرون هذه الآلهة المزعومة بقول ظاهر فقط بألسنتكم، وهو قول لا حقيقة له، ولا دليل عليه، ولكن حُسِّن وجُمِّلَ للذين كفروا مكرهم من الإعراض عن التوحيد، والإقامة علىٰ الإشراك والتنديد، وبفعلهم هذا صُدُّوا وصُرِفوا عن طريق الحق والتوحيد، واعلموا أن من لم يلتجئ إلىٰ الله فلن يوفقه الله للهداية ويرشده إليها؛ وليس له هادٍ يهديه، ولا ناصر ينجّيه من عذاب الله.

والمقصود: أن من أصر علىٰ الكفر فَحَكَمَ الله عليه بالضلال فليس هناك قوة تهديه؛ وإضلال الله له هو إضلال جزائي وليس ابتدائي.

[٣٤] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المشركين الضالين لهم عذاب في الحياة الدنيا بالقتل والأسر والذل، ولهم في الآخرة عذاب أشد وأشق وأدوم وأبقىٰ، وليس لهم مانعٌ ولا عاصمٌ ولا ناصرٌ -من آلهتهم المزعومة -يدفع عنهم عذاب الله وسخطه.

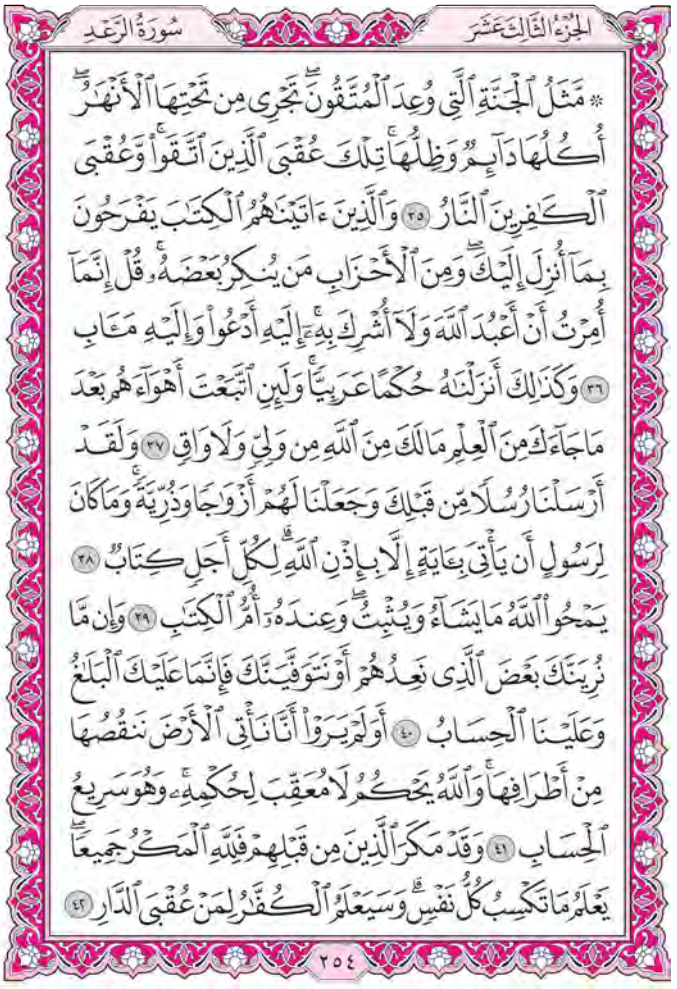

مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ
أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى
الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ
بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا
أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ
﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم
بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾
يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا
نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ
وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا
مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ
يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾

[٣٥] يصف جل وعلا الجنة التي أعدَّها لعباده المتقين الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقايةً بتوحيده وفعل أوامره واجتناب نواهيه، هذه الجنة تجري تحت قصورها وأشجارها أنهار الماء والخمر واللبن والعسل المصفىٰ، وأكلها دائم لا ينقطع، وظلها دائم وعريض لا يتقلّص ولا يذهب، وهذه المثوبة جزاء ومآل الذين خافوا الله واتقوه واستجابوا لرسوله ﷺ، أما مصير الكافرين المكذّبين، فهي نار حارقة، وبئس المصير.

[٣٦] يخبر سبحانه أن الذين أعطاهم الكتاب وهم الذين أُنزل عليهم التوراة والإنجيل وآمنوا بالنبي ﷺ وصدقوه فهؤلاء يفرحون فرحًا شديدًا بما أنزل إليه من القرآن وذلك لتصديقه لما في التوراة والإنجيل، وهناك طوائف قد تحزبت ضد الحق واتحدوا علىٰ الكفر، فمنهم من ينكر بعض هذا القرآن ويكذب به ولا يصدقه، فقل لهم يانبي الله: إني أمرت أن أوحد الله وأخلص العبادة له وحده، ولا أشرك به شيئًا، هو ربي لا إله إلا هو، فأنا أدعو الناس إلىٰ عبادة الله وتوحيده، وأنهاهم عن الشرك به، وإليه مرجعي وإيابي.

[٣٧] ثم يخبر سبحانه أنه كما أنزل الكتب علىٰ الرسل بلغات قومهم أنزل علىٰ النبي ﷺ القرآن بلغة قومه وهي اللغة العربية ليسهل حفظه ونشره في سكان الأرض كلها، وهو جامع لأصول الشرائع السماوية لتحكم بالعدل والصواب بين العباد في جميع شئونهم من أمور العبادة وأمور الدنيا من تجارة وعلاقات وكل ما يحتاجه البشر، وإذا اتبعت يا نبي الله أهواء المشركين في عبادة غير الله بعد الحق الذي جاءك فاعلم أنه ليس لك ناصر من دون الله يدفع عنك العذاب ولا من يحميك من عقاب الله.

ولا شك أنه ﷺ معصوم مما هو أقل من هذا، والمقصود: إبلاغ أمته وتحذيرهم من الضلال بعد الهدىٰ.

[٣٨] واعلم يانبي الله أن الله أرسل من قبلك رسلًا إلىٰ قومهم يدعونهم إلىٰ التوحيد، ويحذرونهم من الشرك، وقد كانوا بشرًا مثلك، وكانت لهم زوجات، ولهم ذرية، فلا يحزنك ما يعيبك به هؤلاء المشركون، فهذا ليس بعيب ولا منقصة، فإخوانك الأنبياء من قبلك كانت لهم أزواج وذرية، ثم أخبر قومك يارسول الله: أن الرسول إنما هو مبلّغ عن الله، ليس في يده أن يأتي بالمعجزات من عند نفسه، إنما يأتي بها إذا أُوحي إليه بها، ولكل أمر قضاه الله وقدَّره وقت لا يتأخر عنه، وساعة لا يتقدم عليها ولا يتأخر.

[٣٩] يبين جل وعلا أن قدرته لا حدود لها، وأنه يفعل ما يشاء مما تقتضيه الحكمة، فيمحو ما يشاء ويبقي ما يشاء، وعنده أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ.

ومعلوم أن أحكام الله وأقداره المكتوبة في اللوح المحفوظ علىٰ قسمين: قسم لا يعتريه التغيير وهو الذي لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وقسم معلق بأسباب ومبررات وهي التي تخضع للمحو والإثبات.

[٤٠] يخاطب جل وعلا رسوله ﷺ، فيقول: يانبي الله إن أريناك بعض الذي وعدنا به قومك – المكذبين – من العذاب؛ فذاك، وإن توفيناك قبل ذلك فلا عليك، فلن يفوتونا ولن يفلتوا منا، فأنت إنما عليك البلاغ والبيان والدلالة والإرشاد، ونحن علينا الحساب والجزاء، وستُوفَّىٰ كلّ نفس ما عملت، وتُجازىٰ بما كسبت.

[٤١] ثم يخاطب سبحانه نبيه ﷺ فيقول: أولم يشاهد الكفار أن الله مكن المسلمين من الاستيلاء علىٰ أرض الكافرين بلدة بلدة حتىٰ أذن الله بفتح أم القرىٰ، وهذا قول أكثر المفسرين، وقال آخرون: إن الرمال تزحف حتىٰ تغطي بعض البحار فيعلو البحر ويطمر البلاد الساحلية، وقال الشيخ محمد السبيل رحمة الله: نقصان الأرض هو موت العلماء، وقد جاء ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما. ثم أخبر جل وعلا أنه يحكم بما يشاء في خلقه لا يتعقب أحد ما حكم به، كما أنه لا راد لحكمه وقضائه، وهو سبحانه يحاسب الخلق جميعًا في وقت سريع.

[٤٢] ثم يخبر سبحانه أن الأقوام السابقة قد مكرت برسلها وبالمؤمنين، ودبَّروا لهم المكائد، وكان عاقبة ذلك خسارتهم وندمهم وخزيهم في الدارين، إذِ المكر لله جميعًا، وأيّ مكر لا قيمة له ولا تأثير في مواجهة مكر الله جل وعلا بالماكرين، فهو سبحانه يبطل مكرهم وكيدهم، ويعلم ما تكسب كل نفس من خير أو شر، وسيُجازي كلّ نفس بما عملت، وسيعلم الكفار الجاحدون للتوحيد، المقيمون علىٰ الشرك لمن تكون النجاة، ولمن يكون الفوز والفلاح، ولمن تكون العاقبة المحمودة في الدنيا والآخرة.

[٤٣] ختم جل وعلا السورة بذكر تكذيب الكفار الذين ينكرون رسالتك ونبوتك يانبي الله، فكذبهم الله وشهد بصدقه، وشهادة الله أنه أيده بالبينات والمعجزات والقرآن الذي تحداهم بالإتيان بمثله، وكذلك شهد بصدقه علماء أهل الكتاب الذين عرفوه كما يعرفون أبناءهم فآمنوا وشهدوا له بالنبوة والرسالة فصلىٰ الله عليه وسلم؛ فهو الصادق الأمين حتىٰ قبل النبوة.

سورة إبراهيم

سورة إبراهيم مكيّة وآياتها ثنتان وخمسون آية.

[١] سبق الكلام عن الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

ثم أخبر جل وعلا أنه أنزل هذا القرآن علىٰ محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، وجبريل يوحيه إليه ليخرج المكلفين من العباد من ظلمات الجهل والكفر إلىٰ نور الهدىٰ والصلاح. وَجَمَعَ الظلمات لتعددها وتنوعها، وأفرد النور وهو الصراط المستقيم والإيمان وإخلاص العبادة لله وحده. وكل ذلك لا يتم إلا بعون الله وغوثه وتوفيقه فهو الهادي إلىٰ سواء السبيل، قال تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[البلد:١٠].

وقوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾: تشعر بلطف الله ورحمته وتربيته لعباده وإنارة السبيل لهم، وكما أنه يخرجهم من الظلمات إلىٰ النور؛ فإنه أيضًا يخرجهم إلىٰ طريق الله العزيز الذي يَغْلِبُ ولا يُغْلَبُ، الحميد المحمود بكل لسان.

[٢] يخبر سبحانه أن له مُلْكَ السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما؛ مُلكًا وتدبيرًا وتصريفًا، وله الأمر والحكم جل وعلا، وويل للذين يجحدونه ولا يؤمنون برسله من عذاب غاية في الشدّة والقسوة والغلظة.

[٣] وضح جل وعلا أن الهلاك والعذاب علىٰ الكافرين الذين يستحبون الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، ويمنعون الناس عن الإيمان والصلاح بالتهديد والوعيد والإيذاء، ويريدون أن تكون الطرق معوجة حسب أهوائهم، وهؤلاء الموصوفون بهذا الصفات في ضلال وبُعدٍ كبير عن الحق.

[٤] واعلم يارسول الله أن الله ما بعث من رسول لأمة من قبلك إلّا منهم وبلغتهم؛ ليوضح لهم التوحيد وتفاصيل العبادة لله، حتىٰ لا يكون لأحد منهم حجة، ثم بعد ذلك يضل الله من يختار الضلال، أي: يتركه وما اختار، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف:٥]. وكذلك من يرغب الهدىٰ والصلاح يهديه هداية التوفيق والإعانة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[محمد:١٧]، والله هو العزيز في ملكه لا يغلبه غالب، الحكيم في كل أفعاله وتصرفاته.

[٥] يخبر جلا وعلا أنه أرسل موسىٰ عليه السلام إلىٰ بني إسرائيل، وأيده ببعض الآيات البينات والمعجزات الباهرات، الدالة علىٰ صدقه، وأمره أن يدعو قومه إلىٰ الإيمان لإخراجهم من ظلمات الكفر والضلال إلىٰ نور الهدىٰ والإيمان، وهكذا كل الرسل مهمتهم إخراج أقوامهم من الظلمات إلىٰ النور، كما أمره أن يبالغ في نصحهم وتذكيرهم بما حصل للأقوام السابقة مثل قوم نوح وعاد ومدين وغيرهم ممن حاق بهم العذاب وحلّت عليهم النكبات لمّا عاندوا وكذّبوا الرسل، واعلموا إن ما حلّ بالأمم الماضية آيات لكل صبّار كثير الصبر وكثير الشكر لنعم الله وهدايته.